ضوابط العبادة الصحيحة والرد على الصوفية

(الحلقة الأولى)

للدكتور صالح بن الفوزان
مدير معهد العالى للقضاء، بالرياض

الحمد لله رب العالمين ، أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة ورضى لنا الاسلام دينا ، وأمرنا بالتمسك به إلى الممات ، ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[1].

وتلك وصية ابراهيم ويعقوب لبنيه ﴿ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[2]. وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له (ونحن له مسلمون) وأشهد أن محمدا عبده ورسوله الصادق المأمون أنزل الله عليه : ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾.

اللهم صل وسلم على عبدك ورسولك نبينا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين وسلم تسليما كثيرا — أما بعد :

فإن الله خلق الجن والانس لعبادته كما قال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون﴾[3] وفى ذلك شرفهم وعزهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة لأنهم بحاجة إلى ربهم ، لا غنى لهم عنه طرفة عين ، وهو غنى عنهم وعن عبادتهم

---

(١) آل عمران : ١٠٢

(٢) سورة البقرة : ١٣٢

(٣) سورة الذاريات : ٥٦

لذا قال تعـــالى : ﴿إن تكفروا فإن الله غنى عنكم ﴾[١] وقال تعالى : ﴿وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن فى الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد﴾[٢]. . .

والعبادة حق لله على خلقه وفائدتها تعود اليهم ، فمن أبى أن يعبد الله فهو مستكبر ، ومن عبد الله وعبد معه غيره فهو مشرك ، ومن عبد الله وحده بغير ما شرع فهو مبتدع ، ومن عبد الله وحده بما شرع فهو المؤمن الموحد .

ولما كان العباد فى ضرورة إلى العبـادة ، ولا يمكنهم أن يعرفوا بـأنفسهم حقيقتها التى ترضى الله سبحانه وتوافق دينـــه لم يكلهم إلى أنفسهم بل أرسل اليهم الرسل وأنزل الكتب لبيان حقيقة تلك العبادة كما قال تعالى : ﴿ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت﴾[٣] وقال تعـــالى : ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى اليـــه أنه لا إلـــه إلا أنا فاعبدون﴾[٤].

فمن حاد عما بينتـه الرسل ونزلت به الكتب من عبادة الله وعبد الله بما يملى عليه ذوقه وما تهواه نفسه ومـا زينته له شياطين الانس والجن فقد ضل عن سبيل الله ولم تكن عبادته فى الحقيقة عبادة لله بل هى عبادة لهواه : ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾[٥] و هـذا الجنس كثير فى البشر وفى طليعتهم النصارى و من ضل من فرق هذه الأمة كالصوفية الذين نحن بصدد الكلام عنهم فى هذه العجالة فانهم اختطوا لأنفسهم خطة فى العبادة مخالفـــة لما

(١) سورة الزمر : ٧

(٢) سورة ابراهيم : ٨

(٣) سورة النحل : ٣٦

(٤) سورة الأنبياء : ٢٥

(٥) سورة القصص : ٥٠

شرعه الله فى كثير من شعاراتهم . وهذا يتضح ببيان حقيقة العبادة التى شرعها الله على لسان رسول الله ﷺ وبيـان ما عليه الصوفية اليوم من انحرافات عن حقيقة تلك العبادة .

ان العبادة التى شرعها الله سبحانه وتعالى تنبنى على أصول وأسس ثابتـة تتلخص فيما يلى :

أولا : أنها توقيفية — بمعنى أنـه لا مجال للرأى فيها — بل لا بد أن يكون المشرع لها هو الله سبحانه وتعالى ، كما قال تعالى لنبيه : ﴿فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا تطغوا﴾(١) وقال تعالى : ﴿ثم جعلناك على شريعـة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾(٢) وقال عن نبيـه : ﴿إن أتبع إلا ما يوحى إلى﴾(٣).

ثانيا : لابد أن تكون العبادة خالصـة لله تعالى من شوائب الشرك ، كما قال تعـالى : ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبـادة ربه أحدا﴾(٤).

فان خالط العبادة شىء من الشرك أبطلها كما قال تعـالى : ﴿ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون﴾(٥) وقال تعالى : ﴿ولقد أوحى اليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخـاسرين . بل الله فاعبد

---

(١) سورة هود : ١١٢
(٢) سورة الجاثية : ١٨
(٣) سورة الأحقاف : ٩
(٤) سورة الكهف ١١٠
(٥) سورة الأنعام : ٨٨

وكن من الشاكرين ﴾(١).

ثالثا : لابد أن يكون القدوة فى العبادة والمبين لها رسول الله ﷺ كما قال تعالى : ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة ﴾(٢) وقال تعالى : ﴿ وماآتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾(٣)، وقال النبي ﷺ : « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد(٤) » وفى رواية « من أحدث فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد(٥) » . وقوله ﷺ : « صلوا كما رأيتمونى أصلى(٦) » وقوله : « خذوا عنى مناسككم(٧) » إلى غير ذلك من النصوص .

رابعا : أن العبادة محددة بمواقيت ومقادير لا يجوز تعديها و تجاوزها كالصلاة مثلا قال تعالى : ﴿ ان الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا ﴾(٨) وكالحج قال تعالى : ﴿ الحج أشهر معلومات ﴾(٩) وكالصيام ، قال تعالى : ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس و بينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم

---

(١) سورة الزمر : ٦٥—٦٦

(٢) سورة الأحزاب : ٢١

(٣) سورة الحشر : ٧

(٤) رواه مسلم .

(٥) متفق عليه .

(٦) أيضا

(٧) رواه مسلم .

(٨) سورة النساء : ١٠٣

(٩) سورة البقرة : ١٩٧

الشهر فليصمه﴾[١].

خامسا : لابد أن تكون العبادة قائمة على محبة الله تعالى والذل له وخوفه ورجائه

قال تعالى : ﴿أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمتــه و يخافون عذابه﴾[٢]، وقالى تعالى (إنهم كانوا يســارعون فى الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين﴾[٣] وقال تعالى : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فـاتبعونى يحببكم الله و يغفرلكم ذنوبكم والله غفور رحيم . قل أطيعوا الله والرسول فان تولوا فان الله لا يحب الكافرين﴾[٤].

فذكر سبحانه علامات محبة الله وثمراته ، أما علامتها فاتباع الرسول ﷺ وطاعة الله وطاعة الرسول .

أما ثمراتها فنيل محبة الله سبحانه ومغفرة الذنوب والرحمة منه سبحانه .

سادسا : أن العبادة لا تسقط عن المكلف من بلوغه عاقلا الى وفاته ، قال تعالى: ﴿ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون﴾[٥] وقال : ﴿واعبد ربك حتى يأتيك اليقين﴾[٦].

وقد خالف الصوفية هذه الأسس التى تقوم عليها العبادة الصحيحة . واختطوا لأنفسهم خطة مغايرة لها فكان لابد من كشف حقيقتهم و بيان موقفهم من العبادة الصحيحة والدين فنقول :

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥

(٢) سورة الاسراء : ٥٧

(٣) سورة الأنبياء : ٩٠

(٤) آل عمران : ٣١—٣٢

(٥) آل عمران : ١٠٢

(٦) سورة الحجر : ٩٩

أ — حقيقة التصوف :

لفظ التصوف والصوفية لم يكن معروفا فى صدر الاسلام وانما هو محدث بعد ذلك أو دخيل على الاسلام من أمم أخرى .

قال شيخ الاسلام ابن تيمية رحمه الله فى مجموع الفتاوى : أما لفظ الصوفية فانه لم يكن مشهورا فى القرون الثلاثة وانما اشتهر التكلم به بعد ذلك ، وقد نقل التكلم به عن غير واحد من الأئمة والشيوخ : كالامام أحمد بن حنبل وأبى سليمان الدارانى وغيرهما ، وقد روى عن سفيان الثورى أنه تكلم به ، وبعضهم يذكر ذلك عن الحسن البصرى ، وتنازعوا فى المعنى الذى أضيف اليه الصوفى فانه من أسماء النسب كالقرشى والمدنى وأمثال ذلك ، فقيل انه نسبة إلى أهل الصفة ، وهو غلط ، لأنه لو كان كذلك لقيل : صُفّى ، وقيل نسبة إلى الصف المقدم بين يدى الله وهو أيضا غلط فانه لو كان كذلك لقيل : صَفّى ، وقيل نسبة إلى الصفوة من خلق الله وهو غلط لأنه لو كان كذلك لقيل : صفوى ، وقيل نسبة إلى صوفة بن بشر بن أدّ بن طابخة — قبيلة من العرب كانوا يجاورون بمكة من الزمن القديم ينسب اليهم النساك — وهذا وان كان موافقا للنسب من جهة اللفظ فانه ضعيف أيضا ، لأن هؤلاء غير مشهورين ولامعروفين عند اكثر النساك ولأنه لو نسب النساك إلى هؤلاء لكان هذا النسب فى زمن الصحابة والتابعين وتابعيهم أولى . ولأن غالب من تكلم باسم الصوفى لا يعرف هذه القبيلة ولا يرضى أن يكون مضافا إلى قبيلة فى الجاهلية لا وجود لها فى الإسلام — وقيل : وهو المعروف انه نسبة إلى لبس الصوف ، فانه أول ما ظهرت الصوفية من البصرة .

وأول من بنى دويرة الصوفية بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد ،

وعبد الواحد من أصحاب الحسن ، وكان فى البصرة من المبالغة فى الزهد والعبادة والخوف ونحو ذلك ما لم يكن فى سائر أهل الأمصار . . . وقد روى أبوالشيخ الأصبهانى باسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوما يفضلون لباس الصوف فقال : ان قوما يتخيرون لباس الصوف يقولون انهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدى نبينا أحب الينا ، وكان ﷺ يلبس القطن وغيره أو كلاما نحوا من هذا ، ثم يقول بعد ذلك : و هؤلاء نسبوا الى اللبسة الظاهرة وهى لباس الصوف فقيل فى أحدهم صوفى ، وليس طريقهم مقيدا بلباس الصوف ولا هم أوجبوا ذلك ولا علقوا الأمر به ، لكن أضيفوا اليه لكونه ظاهر الحال .

الى أن قال : فهذا أصل التصوف ثم انه بعد ذلك تشعب وتنوع — وكلامه[1] رحمه الله يعطى أن التصوف نشأ فى بلاد الاسلام على يد عباد البصرة نتيجة لمبالغتهم فى الزهد والعبادة ثم تطور بعد ذلك — والذى توصل اليه بعض الكتاب العصريين — أن التصوف تسرب إلى بلاد المسلمين من الديانات الأخرى كالديانة الهندية والرهبانية النصرانية — وقد يستأنس لهذا بما نقله الشيخ عن ابن سيرين أنه قال ان قوما يتخيرون لباس الصوف يقولون انهم متشبهون بالمسيح بن مريم ، وهدى نبينا أحب الينا . فهذا يعطى أن التصوف له علاقة بالديانة النصرانية . . . .

و يقول الدكتور صابر طعيمة فى كتابه : الصوفية معتقدا ومسلكا ، ويبدو أنه لتأثير الرهبنة المسيحية التى كان فيها الرهبان يلبسون الصوف وهم فى أديرتهم كثرة كثيرة من المنقطعين لهذه الممارسة على امتداد الأرض التى حررها الاسلام بالتوحيد أعطى هو الآخر دورا فى التأثر الذى بدا على سلوك الأوائل[2].

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥—٧ ، ١٦ ، ١٨) .
(٢) أيضا ص ١٧

وقال الشيخ احسان الهى ظهير رحمـه الله فى كتابه : التصوف ، المنشأ والمصادر عندما نتعمق فى تعاليم الصوفية الأوائل والأواخر وأقاويلهم المنقولة منهم والمأثورة فى كتب الصوفيـة القديمة والحديثة نفسها نرى بونا شائعا بينها وبين تعـاليم القرآن والسنـة ، وكذلـك لا نرى جذورهـا وبذورها فى سيرة سيد الخلق محمد ﷺ وأصحابـه الـكرام البررة خيار خلق الله وصفوة الـكون ، بل بعكس ذلك نراها مأخوذة مقتبسـة من الرهبنة المسيحية والبرهمة الهندوكية وتنسك اليهودية وزهد البوذية[١].

ويقول الشيخ : عبد الرحمن الوكيل رحمه الله فى مقدمـة كتاب : مصرع التصوف أن التصوف أدنأ وألأم كيدا ابتدعه الشيطان ليسخر معه عباد الله فى حربه لله ولرسله ، انه قناع المجوس يتراءى بأنه ربانى ، بل قناع كل عدو صوفى للدين الحق فتش فيه تجد برهمية وبوذية و زرادشتية ومانويـة وديصانية ، تجد أفلاطونية وغنوصية . تجد فيه يهودية ونصرانية ووثنية جاهلية[٢].

ومن خلال عرض آراء هؤلاء الـكتـاب المعاصرين فى أصل الصوفيـة . وغيرهم لم نذكره كثيرون يرون هـذا الرأى . يتبين أن الصوفية دخيلة على الاسلام يظهر ذلك فى ممارسـات المنتسبين اليها — تلك الممارسات الغريبة على الاسلام والبعيدة عن هديه ، وانما نعنى بهذا المتأخرين من الصوفية حيث كثرت وعظمت شطحاتهم .

أما المتقدمون منهم فكانوا على جانب من الاعتدال ، كالفضيل بن عياض والجنيـد وابراهيم بن أدهم وغيرهم . . .

---

(١) ص ٢٨
(٢) ص ١٩

ب — موقف الصوفية من العبادة والدين :

للصوفية — خصوصا — المتــأخرين منهم منهج فى الدين والعبادة يخالف منهج السلف ويبتعد كثيرا عن الكتاب والسنــة . فهم قد بنوا دينهم وعبادتهم على رسوم ورموز واصطلاحات اخترعوها وهى تتلخص فيما يلى :

١ — قصرهم العبادة على المحبة فهم يبنون عبادتهم لله على جانب المحبة ويهملون الجوانب الأخرى كجــانب الخوف والرجاء كما قال بعضهم ، أنا لا أعبد الله طمعا فى جنته ولا خوفا من ناره — ولا شك أن محبة الله تعالى هى الأساس الذى تبنى عليه العبادة . ولكن العبــادة ليست مقصورة على المحبــة كما يزعمون بل لها جوانب وأنواع كثيرة غير المحبــة كالخوف والرجاء والذل والخضوع والدعاء إلى غير ذلك ، فهى كما قال شيخ الاسلام ابن تيميــة : اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة . . .

ويقول العلامة ابن القيم :

وعبادة الرحمن غاية حبــه   مع ذل عابده هما قطبــان

وعليهما فلك العبادة دائر   ما دار حتى قامت القطبان

ولهذا يقول بعض السلف : من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحــده فهو مرجىء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حرورى ، ومن عبده بالحب والخوف والرجــاء فهو مؤمن موحد .

وقد وصف الله رسله وأنبيــاءه بأنهم يدعون ربهم خوفا وطمعا ، وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يدعونه رغبا ورهبا .

قال شيخ الاسلام ابن تيميــة رحمه الله : ولهذا قد وجد فى نوع من

المستأخرين من انبسط فى دعوى المحبة حتى أخرجه ذلك إلى نوع من الرعونة والدعوى التى تنافى العبودية . وقال أيضا : وكثير من السالكين سلكوا فى دعوى حب الله أنواعا من الجهل بالدين ، أما من تعدى حدود الله ، وأما من تضيع حقوق الله وأما من ادعاء الدعاوى الباطلة التى لا حقيقة لها .

وقال أيضا : والذين توسعوا من الشيوخ فى سماع القصائد المتضمنة للحب والشوق واللوم والعذل والغرام كان هذا أصل مقصودهم ، ولهذا أنزل الله آية المحبة محنة يمتحن بها المحب ، فقال : ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله﴾[1].فلا يكون محبا لله الا من يتبع رسوله ، وطاعة الرسول ومتابعته لاتكون الا بتحقيق العبودية ، وكثير ممن يدعى المحبة يخرج عن شريعته وسنته ﷺ ويدعى من الخيالات ما لايتسع هذا الموضع لذكره ، حتى يظن أحدهم سقوط الأمر — وتحليل الحرام له .

و قال أيضا : و كثير من الضالين الذين اتبعوا أشياء مبتدعة من الزهد والعبادة على غير علم ولا نور من الكتاب و السنة وقعوا فيما وقع فيه النصارى من دعوى المحبة لله مع مخالفة شريعته و ترك المجاهدة فى سبيله ونحو ذلك انتهى[2] .

فتبين بذلك أن الاقتصار على جانب المحبة لا يسمى عبادة قد يؤول بصاحبه إلى الضلال بالخروج عن الدين .

(يتبع)

---

(١) سورة آل عمران ٢

(٢) العبودية لشيخ الاسلام ابن تيمية ص ٩٠ طبعة الرئاسة العامة للافتاء .

● ● ●